دور المرأة في مهنة السقاية عبر العصور التاريخية

د. جيهان سعيد الراجحي
قسم العلوم الاجتماعية – كلية الآداب
جامعة الطائف

ملخص البحث:

كرم الإسلام المرأة وأعطى لها حرية الدين والملكية، والمال ، والعلم حتى أصبحت تستفتى في أمور الدين، وشاركت الرجل في تحمل مسؤوليات المجتمع في حدود الشريعة عالمة، ومعلمة كما شاركته ونافسته في تأسيس الجوامع ،والمدارس والأربطة والبيمارستانات ،إذ كان لها دورها البارز في أعمال الخير والبر في جميع الأمكنة والأزمنة حتى تبوئت مرتبة عالية في مجتمعها خلال العصور التاريخية في التاريخ الإسلامي، وحصلت على ألقاب تشريفية أطلقت على كثير من النساء في كافة العصور منها: الواعظة ،والشيخة، والعالمة ، والفقيهة ، والصالحة، والمباركة والأصيلة ، والمحدثة ، والمسندة ، والخيرة الفاضلة.

وهذه الدراسة محاولة لتقديم فكرة واضحة عن جانب من جوانب الدور الحضاري للمرأة المكية خلال العصور التاريخية الإسلامية، إذ كانت إسهاماتها بارزة ونلحظ ذلك من خلال التغيرات السياسية ، والاجتماعية التي أثرت في مكة وكان لها أثرها على النشاطات التي مارستها المرأة، تميزت المرأة بعطاء ثري في النشاط الاجتماعي والعلمي في وقت كانت المرأة في أوروبا لا قيمة لها في المجتمع مقصيه عنه ولا حقوق لها.

كما نتناول الجانب الخيري والاجتماعي لدور المرأة في مهنة السقاية في كافة العصور التاريخية، ومن خلال نماذج لبعض النساء اللاتي كن لهن بصمتهن في هذا المجال نلقي الضوء على دور النساء الاجتماعي الذي من خلاله استطعن أن يكن لهن نشاطهن البارز في مهنة السقاية من خلال أوجه الإنفاق والتشييد، وأعمال البر، وبناء الأسبلة والسقايات ،في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة، وفي درب الحاج والأربطة والبيمارستانات ،وأعمال البر الأخرى إذ كن أنموذجً لنساء الحرمين ومشاركتهن الفعالة في المجتمع.

Summary

Islam honored the woman and gave her freedom of religion, property, money, and knowledge until she became a question in matters of religion, and the man participated in carrying out the responsibilities of society within the limits of the Sharia, a scholar and teacher, as it participated and compete with him in establishing mosques, schools, ligaments, and imams, as she had a prominent role in charitable work. Righteousness in all places and times until it assumed a high position in her society during the historical eras in Islamic history, and she obtained honorary titles given to many women of all ages, including: the preacher, the sheikh, the scholar, the jurist, the righteous, the blessed and the authentic, the modern, the musnad, and the good Virtuous.

This study is an attempt to provide a clear idea about one aspect of the civilizational role of the Meccan woman during the Islamic historical eras, as her contributions were prominent and we notice this through the political and social changes that affected Makkah and had an impact on the activities practiced by women. Social and scientific at a time when women in Europe had no value in society, excluded from it, and had no rights.

We also deal with the charitable and social aspect of the role of women in the watering profession in all historical eras, and through examples of some women who have had their mark in this field, we shed light on the social role of women through which they were able to have their prominent activity in the watering profession through aspects of spending and construction. , And the works of righteousness, and the building of basilicas and waterings, in Makkah Al-Mukarramah and the holy sites, and in the path of pilgrimage, ligaments, bimaristans, and other acts of righteousness as they were a model for the women of the Two Holy Mosques and their active participation in society.

المقدمـة:

كرم الإسلام المرأة وأعطى لها حرية الدين والملكية، والمال، والعلم حتى أصبحت تستفتى في أمور الدين، وشاركت الرجل في تحمل مسؤوليات المجتمع في حدود الشريعة عالمة، ومعلمة كما شاركته ونافسته في تأسيس الجوامع ،والمدارس والأربطة والبيمارستانات؛ إذ كان لها دورها البارز في أعمال الخير والبر في جميع الأمكنة والأزمنة حتى تبوأت مرتبة عالية في مجتمعها خلال العصور التاريخية في التاريخ الإسلامي، وحصلت على ألقاب تشريفية أطلقت على كثير من النساء في كافة العصور منها: الواعظة، والشيخة، والعالمة، والفقيهة، والصالحة، والمباركة والأصيلة، والمحدثة، والمسندة، والخيرة الفاضلة(١).

وهذه الدراسة محاولة لتقديم فكرة واضحة عن جانب من جوانب الدور الحضاري للمرأة المكية خلال العصور التاريخية الإسلامية؛ إذ كانت إسهاماتها بارزة، ونلحظ ذلك من خلال التغيرات السياسية، والاجتماعية التي أثرت في مكة، وكان لها أثرها على النشاطات التي مارستها المرأة، تميزت المرأة بعطاء ثري في النشاط الاجتماعي والعلمي في وقت كانت المرأة في أوروبا لا قيمة لها في المجتمع مقصيه عنه ولا حقوق لها.

كما نتناول الجانب الخيري والاجتماعي لدور المرأة في مهنة السقاية في كافة العصور التاريخية، ومن خلال نماذج لبعض النساء اللاتي كن لهن بصمتهن في هذا المجال، نلقي الضوء على دور النساء الاجتماعي الذي من خلاله استطعن أن يكن لهن نشاطهن البارز في مهنة السقاية من خلال أوجه الإنفاق والتشييد وأعمال البر، وبناء الأسبلة والسقايات، في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة، وفي درب الحاج والأربطة والبيمارستانات، وأعمال البر الأخرى؛ إذ كن أنموذجًا لنساء الحرمين ومشاركتهن الفعالة في المجتمع.

---

(١) الفاسي، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن الحسن (ت٧٧٥هـ/٨٣٢م): العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، بيروت ،مؤسسة بيروت، ١٤٠٦، ج٨، ص٢٠٢,٢٣٢,٢٣٤,٢٣٧,٢٧٠، السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٣٥٥، ج١٢، ص٨٧–٨٨.

دور المرأة في مهنة السقاية :

كانت السقاية من تلك القيم السامية التي عرفها العرب لماجرت عليه العادة في الجزيرة العربية من سقاية الناس، وحجاج بيت الله الحرام، حيث إن شرف سقاية الناس وتسهيل حصولهم على مياه الشرب في المنطقة العربية عامة قديم ومعروف؛ لاسيما وأن طبوغرافية مكة بجوها الحار، وبيئتها المترية قد[١] دفعت المحسنين إلى التباري في توفير المياه لأهل مكة، وكم تاهت قريش فخراً قبل الإسلام لقيامها بدور سقاية الحجاج، ومن سقاية الحجاج في هجير مكة إلى سقاية المارة في طرقات المدن، وحولوها في ظل الإسلام من مجرد عادة يحكمها العرف إلى عمل منظم تحكمه قواعد مؤسسية وترعاه هيئات شرعية. عرفت بالأسبلة أو السقايات يقول الفاسي: (بمكة وحرمها عدة سقايات، تسمى أيضًا السبل بسين مهملة وباء موحدة مضمومتين جمع سبيل، وشهرتها عند الناس بالسبل أكثر، وهي كثيرة إلا إن بعضها صار لا يعرف لخرابه وبعضها معروف مع الخراب).

وتعتبر السقايات مظهرًا من مظاهر المسلمين، وعنايتهم بتوفير مياه الشرب لسقاية الحجاج بمكة المكرمة، والمشاعر المقدسة، والذي يعود لعصور ما قبل الإسلام منذ أن فجر الله سبحانه وتعالى زمزم لهاجر وابنها إسماعيل عليه السلام بجوار الكعبة المشرفة، فكانت أول سقاية انتفع بها حجاج بيت الله الحرام قال ابن عباس رضي الله عنهما، قال النبي "صلى الله عليه وسلم": (يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم أوقال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا معينًا) [٢]

فقد خص الله سبحانه وتعالى هاجر بماء زمزم ،وكانت تأذن لقبائل العرب، وكانت على الماء وبذلك يمكننا القول بأنها أول امرأة تعمل في مهنة السقاية، قال تعالى: (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) [٣] نماذج لنساء عملن في مهنة السقاية خلال العصور الإسلامية: تميزت المرأة المسلمة بإنسانيتها، فكانت محط أنظار، وإعجاب

---

(١) الفاسي :شفاء الغرام ،ج١، ص٤٣٨.

(٢) البخاري، محمد بن اسماعيل (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م):فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، بيروت، دار المعرفة (د.ت)

(٣) سورة الحج :آية ٢٧–٢٨

الدارسين والباحثين من الشرق والغرب، حتى إنه يمكننا القول بأن المرأة المسلمة كانت سباقة لكل ما يمت بقريب لمعاني التكافل الاجتماعي ،ومساعدة المحتاجين ،كانت السقاية من أبرز النشاطات الاجتماعية التي أسهمت بها المرأة وبشكل فعال، فالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي كان موضع تقدير واعتبار، فقد جاءت أحاديث كثيرة في الحث على سقي الماء، منها حديث سعد بن عباده رضي الله عنه قال للنبي "صلى الله عليه وسلم": (أمي ماتت فأتصدق عنها، قال: نعم، قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: سقي الماء)[١].

لنيل فضل إنشاء المشاريع والصرف عليها، وحفر الآبار وإجراء مائها، بل تعدى ذلك إلى إنشاء مجامع للماء سواء أكانت تلك المجامع ملاصقة للآبار، أم بعيدة عنها، وأينما يصل إليها الماء عن طريق القنوات، وذلك من أجل تيسير الحصول على الماء في كل وقت، وكانت وظيفتها واحدة هي تقديم الماء للمستقين، قال الفاكهي عن السقايات: (وبمكة وفي فجاجها ومن منطلق هذا الحديث تسابقت فضليات النساء من الصحابيات في سقي الماء وتوفيره، وأبلين بلاء حسناً في الخروج مع الرسول "صلى الله عليه وسلم" في المعارك، والمواقع الإسلامية، فكن يقاتلن ويسقين الجرحى، فقد كانت مرحلة عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده مرحلة فتوحات إسلاميه إضافة للعصر الأموي، الآن المعلومات التي حصلنا عليها معظمها تبدأ من العصر العباسي، وهذا متصل بأن تدوين التاريخ بدأ في العصر العباسي، وعدم وجود أسماء لنساء في العصر الأموي وعصر الرسول "صلى الله عليه وسلم" هذا لا يعني عدم وجود امرأة عملت في مهنة السقاية، وهذا لاحتمال الأرجح لفتح المجال أمام الباحثين لبذل الجهد في البحث في هذ المسألة.

أما في العصر العباسي، ففي تلك الحقبة بسبب التطورات الاجتماعية المتسارعة آنذاك؛ فقد ازدادت مشاركة المرأة السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، حتى مارست المرأة القضاء.[٢]

---

(١) ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م): سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، المكتبة العلمية، كتاب الأدب، باب فضل صدقة الماء حديث رقم ٣٦٤٨.

(٢) شغب من النساء العباسيات من ربات النفوذ، والسلطان، والسياسية ،والدهاء من النساء اللاتي لهن دور في العصر العباسي كانت أمّاً للخليفة المقتدر تولت محكمة استئناف بغداد، وكانت تصرف دخل اموالها في تزويد الحجاج بالماء والطعام وتسهيل الطرقات ولموارد وأعمال البر، توفيت عام٣٢١هـ/ ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي (٥٩٧هـ/١٢٠٠م): المنتظم في تاريخ=

ومن نماذج النساء الرائعات اللاتي كانت لهن صدقات وأعمال بر الخيزران بنت عطا[١] أم هارون الرشيد[٢] أقامت بمكة شهرًا، وتصدقت أموالاً كثيرة وعمرت دار الأرقم بن أبي الأرقم[٣]، ومسجدها عرفت هذه الدار زمن الخليفة المهدي العباسي بدار الخيزران ذكر الكردي تحديدها أنها تقع بالصفا عند مبدأ السعي على يسار الصاعد إلى الصفا[٤].

وكان دور النساء في المجال الاجتماعي ظاهرًا ومميزًا، حيث قمن بتعبيد الطرق وبناء الدور وإقامة المستشفيات والأوقاف وأعمال الخير الكثيرة، إضافة إلى زيادة السكان المطرد في مكة المكرمة ولأهميتها ومكانتها الدينية المتميزة، دعى النساء يتسابقن لنيل فضل إنشاء المشاريع المائية والصرف عليها، وحفر الآبار وإجراء مائها، بل تعدى ذلك إلى إنشاء مجامع للماء سواء كانت تلك المجامع ملاصقة للآبار أو بعيدة عنها، وإنما يوصل إليها الماء عن طريق القنوات، وذلك من أجل تيسير

=الملوك والأمم، حيدر آباد، الدكن، مطبعة المعارف العثمانية، ١٣٩٥هـ/١٩٤٠م، ج٧، ص٨٤. الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد (٧٤٨هـ/١٢٤٧م): تاريخ دول الإسلام ،تحقق حسن إسماعيل وآخرون، بيروت ،دار صادر، ١٩٩٩م.ج١، ص٣٣٣.

(١) الخيزران ام الخليفتين موسى الهادي وهارون الرشيد(ت١٧٣هـ/٧٨٩م)، من مآثرها أنها جعلت الموضع الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم مسجداً، وأخرجته من دار محمد بن يوسف الثقفي، وصفت بأنها كانت عاقلة لبيبة دينه، بجانب ذلك تنفق أموالاً طائلة في البر والصدقة (عمر رضا كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام بيروت، مؤسسة الرسالة، ج١، ص٣٩٩).

(٢) الخليفة أبو جعفر هارون بن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبدالله بن محمد الهاشمي العباسي (١٨٩هـ/٨٠٥م) ولد بالري، وبويع بالخلافة سنة ١٧٠هـ وصف بالصلاح وكثرة العبادة وبتعظيمه للعلماء بجانب كثرة الصدقات والحج، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م): المختصر في أخبار البشر، (د. ت)، مصر ،ص٦٩-٧٢.

(٣) هذه الدار عبارة عن عدة دور حول مخبأ الرسول "صلى الله عليه وسلم" بالإضافة إلى إنها كانت إحدى الصروح والمنارات المهمة في تاريخ بدء الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فقد كانت مكان تجمع الصحابة في أول الأمر مع النبي "صلى الله عليه وسلم"، فقد كانت مكان تجمع الصحابة في أول الأمر مع النبي صلى الله عليه وسلم وبها أسلم عمر بن الخطاب وحمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم ،فهي قد جمعت بين الدعوة سرًا وعلانية (الطبري، أحمد بن عبدالله بن محمد الطبري (ت): القرى لقاصد أم القرى ،قام باختصاره مصطفى السقا ،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، بيروت، ص٦٦٤).

(٤) محمد طاهر الكردي المكي: التاريخ القويم لمكه وبيت الله الكريم، تحقيق عبدالملك بن دهيش، الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، مكة، مكتبة النهضة الحديثة، ج٢، ص٥٤٨.

الحصول على الماء في كل وقت، وكانت وظيفتها واحدة هي تقديم الماء للمستقين[١] قال الفاكهي عن السقايات: (وبمكة وفجاجها ،وشعابها من باب المسجد الى منى ونواحيها، ومسجد التنعيم نحو مائة سقاية).[٢]

أما أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور[٣]، كان لها دور كبير في السقاية، قامت بإصلاح العيون وترميمها، وحفر الآبار، وبناء الأسبلة، والمطاهر، والمضيئات حين تهدمت العيون في مكة وخربت والتي كانت تصب في عين واحدة صنعها عبدالله بن عامر، وانقطع الماء عن أهل مكة بعد خراب تلك العيون التي كانت تسقي مكة، وذلك في أواخر بني أميه، جراء السيول والإهمال وأصاب الناس بعد قطعها شدة وقلة من الماء حتى رجعوا إلى الشرب من الآبار التي يجلبون منها الماء إلى مكة من خارجها، واستمروا كذلك إلى أوائل الدولة العباسية إلى أن أمر الخليفة هارون الرشيد بإصلاح بعض العيون التي خربت، ثم انقطعت هذه العيون، وكان أهل مكة في شدة من قلة الماء، وأصاب الحجاج مشقة عظيمة جراء ارتفاع الأسعار بلغت القربة الصغيرة عشرة دراهم وأكثر.[٤] حينها أمرت أم جعفر بعمل برك، فأجرت لها عينًا من الحرم بماء قليل، ورأت أن الماء لا يكفي، وقد صرفت على ذلك أموالًا عظيمة، فأشار عليها المهندسون أن يجروا لها عيونًا من الحرم، وكانت الجبال عقبة أمامها إلا إنها أرسلت الأموال لنقب الجبال وإيصال الماء، فأخذ العمال يعملون حتى بلغوا الثنية[٥] فإذا الماء يظهر في ذلك الجبل فأمرت بالجبل فضرب فيه، وأخذت تنقب أم جعفر الجبال إلى أن سلك الماء من أرض الحل إلى أرض الحرم، وأنفقت في

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٥٤١.

(٢) الفاكهي، أبوعبدالله محمد بن إسحاق (من علماء القرن الثالث الهجري): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، دراسة وتحقيق عبدالملك ابن عبدالله بن دهيش، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، مكة، مكتبة ومطبعة النهضة، ج٣، ص٩٧.

(٣) زبيدة أم جعفر بنت جعفر المنصور وزوجة هارون الرشيد (ت٢١٦هـ/٨٣١م) واسمها أمة العزيز كان جدها المنصور يرقصها، وهي صغيرة، ويقول أنت زبيدة، فاشتهرت بها، وكانت من أهل الخيرات ولها مآثر عظيمة (كحالة: أعلام النساء، ج٤، ص٣٥).

(٤) الفاكهي: أخبار مكة ،ج٣، ص١٥٢– ١٥٥، الكردي: التاريخ القويم، ج٥، ص٣٥٣.

(٥) هي ثنية خلة، ويقال لها خل الصفاح عند منتهى الحرم من طريق العراق، وطريق السيل الطائف (الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٥٥٢، ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان ،بيروت، دار صادر، ج٢، ص٨٦)

ذلك الأموال، وأجرت فيها عيوناً منها عين شماس[١] واتخذت بركاً تتجمع فيها السيول، ثم أجرت لها عين حنين[٢] ، واشترت حائط حنين، وصرفت عينه إلى البرك، وجعلت حائطه سدًا لتجميع مياه السيول. [٣]

فلما تم عملها، اجتمع العمال والمباشرون لديها وأخرجوا دفاترهم لإخراج حساب ما صرفوه، وما استلموه من خزينة بيت المال، وكانت في قصر عال يشرف على دجله، فأخذت الدفاتر منهم والقتها في النهر، وقالت: (تركنا الحساب ليوم الحساب فمن بقي عنده شيء من بقية المال، فهو له، ومن بقي له شيء عندنا أعطيناه وألبستهم الخلع، والتشاريف، فخرجوا من عندها حامدين شاكرين). [٤] ثم أمرت بإجراء عين وادي النعمان إلى عرفه وهي عين منبعها من ذيل جبل كرا، وجعلت أمنها الطرق إلى البرك التي في أرض عرفات لتمتلي ماء يشرب منه الحجاج في يوم عرفة، ثم استمرت في عمل قناة إلى أن خرجت من أرض عرفات، ثم تصل إلى المزدلفة ومنها إلى جبل خلف منى لتصب في بئر عظيمة طويت بأحجار كبار تسمى هذه البئر ببئر زبيدة، وإليها ينتهي ملء هذه القناة [٥].

ومن نساء العصر العباسي اللاتي عملن في سقاية أهل مكة شغب أم الخليفة المقتدر العباسي[٦]، فقد عمرت السبيل المعروف بسبيل الجوخي والآبار التي وراءه[٧]، وراءه[٧]، وفي ٣١٥هـ/٩٢٧م عمرت خمس برك في عرفات لسقاية الحجاج[٨].

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام: ج١، ص٥٥٣.

(٢) عين مشاش بضم الميم، يتصل بجبال عرفات ،جبال الطائف ومنها مياه كثيرة منها المشاش، وهو الذي يجري بعرفات ويصل إلى مكة (الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٣٠، ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص١٣١).

(٣) الفاكهي: أخبار مكة، ج٣، ص١٥٢– ١٥٥، الفاسي: شفاء الغرام،ج١، ص٥٥٢–٥٥٣، النجم عمر بن فهد: إتحاف الورى، ج١، ص٢٤٨.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢، ص٢٤٨.

(٥) الازرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد (من علماء الثالث الهجري/ الرابع الميلادي): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ،تحقيق رشدي الصالح ملحس، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، مكة المكرمة، دار الثقافة، ج٢ ص٢٣١–٢٣٢، الكردي التاريخ القويم، ج٥، ص٣٥٤–٣٥٦.

(٦) سبق تعريفها.

(٧) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٣٦٣، العقد الثمين، ج١، ص٥٥ .

(٨) ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢، ص٣٧٣.

ومن عرفت بمبراتها الكثيرة وصدقاتها الوافرة في أرض الحرمين بنت ناصر الدولة صاحب الموصل[١] حجت سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م، سقت جميع اهل الموسم السويق والسكر، والثلج، وأنفقت الأموال في سبيل ذلك، وكان يضرب بها المثل في أفعال الخير[٢].

وكان لأم الخليفة الناصر لدين الله زمرد خاتون[٣] سقاية عملت في مؤخرة المسجد الحرام، وكانت تلك السقاية كبيرة فيها عدة من البيوت ،وحفرت لها بئر ،وفتحت لها بابًا إلى المسجد في الحائط الذي يلي الشام ،وهي تفتح في المواسم أيضًا[٤]

ومما لا شك فيه إن إنشاء أسبلة والسقايات وتوفير الماء لتلك السقايات كان أمرًا شاقًا في مكة، لظروفها الطبيعية اذ تحيط بها الجبال القاحلة، لذلك كان سقاية الماء بها فيه من الأجر العظيم والثواب من عند الله ،يتسابق عليه الحكام والسلاطين والأعيان والوجهاء، وزوجاتهم فقد ازداد اهتمامهن بإنشاء أسبلة لسكان مكة والمجاورين بها وحجاج بيت الله الحرام، ففي العصر المملوكي ازدهرت المنشآت الاجتماعية والمرافق الخدمية العامة، خاصة الأسبلة التي أنشأنها النساء، وأوقفن[٥] عليها عقارات، ودوراً، وأراضي للصرف على هذه السقايات وما تحتاج اليه من تعمير، وترميم، بالإضافة إلى تخصيص رواتب للأفراد العاملين في خدمتها، والفراشين المختصين بنظافتها، وذلك حسب ما تحدده من أوقفت السبيل، وتوفير الأدوات اللازمة لاستخدامها[٦].

---

(١) بنت ناصر الدولة ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٤-٤١٥.

(٢) ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي (٥٩٧هـ/١٢٠٠م): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، الدكن، مطبعة المعارف العثمانية، ١٣٩٥هـ/ ١٩٤٠م، ج٧، ص٨٤. الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن احمد (٧٤٨هـ/١٢٤٧م):تاريخ دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل وآخرون، بيروت، دار صادر، ١٩٩٩م.ج١، ص٣٣٣.

(٣) زمرد خاتون (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م).

(٤) السمهودي، نور الدين علي بن أحمد: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج٢، ص٦٧٨.

(٥) الوقف هو الحبس ،والمنع ،أي التصرف في ريع العين، وما تدره من مال معب بقاء العين ذاتها، وجعل منفعتها لجهة من جهات البر، وهي تخرج من ملك صاحبها بيل منفعتها، يجعلها مبذولة على وجه القربى لله تعالى، والوقف من أنواع الخير والصدقات من أموال الواقف في حياته ويستمر بعد مماته (الطرابلسي برهان الدين: الإسعاف في أحكام الأوقاف، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٧).

(٦) استخدمت في الأسبلة آلات متنوعة منها الليف، والكتان، وأدليه جلدية، وبكر، وأسفنج لمسح أرض السبيل، وبخور لتبخير الأواني ومكانس، وأسطال نحاس، وكيزان وقلل فخار، (سعيد عاشور: المجتمع المصري عصر المماليك.ص٩١).

ومن نماذج النساء في العصر المملوكي نذكر منهن زهراء بنت محمد بن قلاوون[١]، وهي من أعيان القرن الثامن الهجري/الخامس الميلادي، عمرت زهراء سبيلاً في طريق منى ويعرف بسبيل الست [٢]، حين قدمت للحج سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م، وفي القرن التاسع الهجري /السادس عشر الميلادي عرف بسبيل ابن مزنه[٣] .

وفي أسفل مكة، يقع سبيل زينب[٤]، بنت قاضي مكة شهاب الدين الطبري[٥]، الطبري[٥]، وقد أنشأته صدقة عن أخيها القاضي نجم الدين الطبري عام ٧٦٥هـ/١٣٦٣م[٦].

ومن لهن السبق في أعمال البر والصدقات في العصر المملوكي أم الحسين بنت الإمام شهاب الدين الطبري[٧]، ففي عام ٧٤٨هـ/١٣٨٢م، أوقفت سبيلها بالمسعى على يمين الذاهب إلى المروة عند موضع الجزارين، والخرازين، وقد ظل هذا السبيل

---

(١) زهراء.

(٢) الفاسي: الزهور المقتطفة ،ص١٩٦، ابن الضياء :تاريخ مكة المشرفة، ص٩٥.

(٣) ابن الضياء المكي: تاريخ مكة المشرفة، ص٩٥، ابن فهد: اتحاف الورى، ج٣، ص٢٨٦، ولم نعرف لابن مزنه تعريف.

(٤) زينب أم محمد المكية: كانت كثيرة المكارم زارت القدس، والخليل عام ٧٩٠هـ/١٣٩٣م بمكة، ودفنت بالمعلاة، (الفاسي: العقد الثمين، ج٨، ص٢٢٤).

(٥) شهاب الدين الطبي: هو شهاب الدين أحمد بنت قاضي مكة نجم الدين الطبري، ولي قضاء مكة بولاية من المجاهد صاحب اليمن، توفي عام ٧٦٠هـ/١٣٨٥مودفن بالمعلاة (الذهبي: العبر، تحقيق محمد سعيد، بيروت، دار الكتب العلمية ،ج٤،ص١٨٣، الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص١٦١-١٦٦.

(٦) ابن الضياء المكي: تاريخ مكة المشرفة، ص٩٦، الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٥٤٠.

(٧) أم الحسين: هي فاطمة بنت شهاب الدين أحمد الطبري المكية، تزوجت الشيخ عبد المؤمن خليفة الدكالي نائب الإمام بمقام المالكية بالمسجد الحرام، سمعت عن والدها وعن جدها الرضي الطبري، وكانت محبة للخير وأعمال البر، وتوفيت عام ٧٨٦هـ/١٣٨٤م بمكة ودفنت بالمعلاة، (الفاسي: العقد الثمين، ج٨، ص٣٢٣).

قائمًا حتى عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م،حيث أمر السلطان قايتباي[١] وكيله بهدمه من أجل عمارة رباط وسبيل للسلطان[٢].

وهناك عدة أسبلة وسقايات ورد ذكرها في المصادر دون تحديد تاريخ أو معلومات عنها سوى اسمها فقط، منها سبيل بنت القاضي عقبة المكي[٣]، وسبيل أم سليمان المتصوفة[٤]، كان لها بئر بالقرب من باب المعلاة، وفي سنة٧٩٦ هـ/١٣٩٣م، عمرت مطهرة للنساء بسوق اليل[٥].

تعتبر السقايات والأسبلة التي أنشأت من قبل نساء من أبرز النماذج التي تبرهن على دور وفعالية المرأة في مهنة السقاية، ونساء الدولة العثمانية ومبراتهن كن خير أنموذج يوضح ويبين دور وتفاعل المرأة مع مجتمعها ،فكانت أوقافهن الضخمة، من أهم الموارد المالية التي تصرف على المدارس، والمساجد، والأربطة، والأسبلة، التي أدت دورها بفعالية في ازدهار الحياة العلمية، والاجتماعية في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، في تلك المرحلة.

فكن نساء القصر، وزوجات السلاطين وبناتهم، يتسابقن في أعمال الخير من سن السابعة حتى السبعين من أعمارهن حتى أصبحن في مقدمة مؤسسي الوقف في التاريخ العثماني[٦].

---

(١) قايتباي: هو السلطان قايتباي الجركسي المحمودي، تولى السلطنة عام ٩٠١هـ/١٤٩٥م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٢٠١.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٦٤٩، عبدالله بن غازي: إفادة الأنام، ج٢، ص٤٣١.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٥٤٠.

(٤) أم سليمان المتصوفة صاحبة زاوية بسوق اليل بمكة أنشأتها عام ٧٧٢هـ/١٣٧٠م، كما أنشأت تربة لها بالمعلاة، جاورت في مكة سنين، وكان لها شهرة، توفيت عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م، ودفنت بتربتها بالمعلاة (الفاسي: العقد الثمين ،ج٨، ص٣٤٣.

(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٥٣٩، ابن الضياء المكي: تاريخ مكة، ص٩٥، ابن فهد: إتحاف إتحاف الورى، ج٢، ص٣٩١.

(٦) مداح، أميرة بنت علي مداح: خيرات ماه بيكر كوسام والدة السلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين صورة للتضامن الاجتماعي، والديني خلال العصر العثماني، المؤرخ المصري،ع ٢٤، يناير، ٢٠٠١، ص٢٩١.

ومن نساء العصر العثماني اللاتي كن لهن دور بارز في مهنة السقاية، وأوقفن أوقافاً للحرمين الشريفين كانت زوجة السلطان أحمد الأول ماه بيكر كوسم سلطان[١] أوقفت أوقافاً لتوفير الماء في طريق الحجاج، وتوفير الإبل اللازمة لنقل تلك المياه[٢].

أما السيدة مهرماه ابنة السلطان سليمان القانوني ٩٢٦هـ/١٦٠٢م[٣]، فقد خصصت مبالغ ضخمة من مالها لإعادة بناء وترميم عين زبيدة، وخصصت لجنة لذلك، إذ قامت بإنشاء ثمانية عشر خزانًا ضخمًا للمياه، وعين ماء لسد احتياجات أحياء مكة للماء ،كما أنشئت عيون ماء في المنطقة المحيطة بالحرم وتزويدها بالصنابير، ليتوضأ الحجاج، إضافة لإيصالها للمياه إلى مستشفى الفقراء والمؤسسات الخيرية السلطانية[٤] .

ومن نساء العصر العثماني اللاتي أوقفن المال لتوفير المياه وسقاية الحجيج كانت خديجة طرخان والدة محمد الرابع، إنها في سنة ١٠٧٣هـ/١٦٦٣م، أوقفت لأرض الحرمين مبلغ ٧٥٠٠ أقجة [٥]، لتأجير٦٥جملًا، تحمل نصفها بالمياه لخدمة حجاج مكة وتوفير المياه لهم[٦].

---

(١) ماه بيكر كوسم (١٠١٢هـ/١٦٠٢م) زوجة السلطان أحمد الأول، وأم السلطانين مراد الرابع، وإبراهيم وهي ابنة قسيس قدمت للسلطان أحمد الأول فتزوجها ،وتوفيت عام ١٦٥١م (ماجدة مخلوف: الحريم في العصر العثماني ،ط١، القاهرة ، دار الآفاق، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص٥٠).

(٢) أميرة مداح: أوقاف النساء في مكة المكرمة في العصر العثماني ودور المرأة فيها، القاهرة، دار القاهرة، ٢٠١٠م، ص١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦.

(٤) ماجدة مخلوف: الخدمات والمرافق العامة في مكة المكرمة في العهد العثماني، مؤتمر مكة عاصمة الثقافة، ١٤٢٦هـ، ص١٧٢.

(٥) أقجة: أصلها مغولي معناها نقد أبيض ،وهي قطعة صغيرة من الفضة ضربت لأول مرة في عهد السلطان أورخان، (سهيل صابان: موسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ط١، الرياض ،مكتبة الملك فهد الوطنية،١٤١٢هـ/٢٠٠٠م، ص٢٠.

(٦) مخلوف: الخدمات والمرافق العامة، ص١٧٢.

قائمة المصادر والمراجع :

المصادر المطبوعة:

- **القرآن الكريم.**
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي (٥٩٧هـ/١٢٠٠م)
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر إباد، الدكن، مطبعة المعارف العثمانية، ١٣٩٥هـ/١٩٤٠م.
- ابن فهد، نجم الدين عمر بن محمد(ت٨١٢هـ/٨٨٥م).
- إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٦م، مكة ،مركز البحث والتراث العلمي.
- ابن الضياء، بهاء الدين محمد بن الضياء العمري القرشي (٨٤٥هـ/١٤٤١م).
- تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة المنورة والقبر الشريف،تحقيق عادل عبدالحميد العدوي، مكة، مكتبة مصطفى احمد الباز، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م).
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ،بيروت ،المكتبة العلمية.
- أبو الفداء عماد الدين إسماعيل (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م)
- المختصر في أخبار البشر، مصر، (د.ت).
- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد (من علماء الثالث الهجري/ الرابع الميلادي).
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م،مكة المكرمة، دار الثقافة.
- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م).
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة (د.ت).

- السخاوي ،محمد بن عبدالرحمن السخاوي (٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م).
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٣٥٥.
- السمهودي، نور الدين علي بن أحمد(٩١١هـ /١٥٠٥م).
- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد (٧٤٨هـ/١٢٤٧م).
- تاريخ دول الإسلام، تحقق حسن إسماعيل وآخرون، بيروت، دار صادر، ١٩٩٩م.
- العبر، تحقيق محمد سعيد ،بيروت ،دار الكتب العلمية.
- الطبري، أحمد بن عبدالله بن محمد الطبري (ت٦٩٤هـ/١٢٩٤م).
- القرى لقاصد أم القرى، قام باختصاره مصطفى السقا، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، بيروت.
- الفاسي، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن الحسن (ت٧٧٥هـ/٨٣٢م).
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق مجموعة من كبار العلماء والأدباء، مكة، مكتبة الباز.
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، بيروت ،مؤسسة بيروت.
- الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- الفاكهي، أبوعبدالله محمد بن إسحاق (من علماء القرن الثالث الهجري).
- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، دراسة وتحقيق عبدالملك ابن عبدالله بن دهيش، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، مكة، مكتبة ومطبعة النهضة.
- الكردي، محمد طاهر الكردي المكي.
- التاريخ القويم لمكه وبيت الله الكريم ،تحقيق عبدالملك بن دهيش، الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، مكة، مكتبة النهضة الحديثة.
- ياقوت، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان ،بيروت، دار صادر.

المراجـــــع:

- صابان، سهيل.
- موسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ط١، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٢هـ/٢٠٠٠م، ص٢٠ .
- عاشور، سعيد عبد الفتاح.
- المجتمع المصري عصر المماليك، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٦٢م.
- الطرابلسي، برهان الدين
- الإسعاف في أحكام الأوقاف، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- كحالة عمر رضا.
- اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام بيروت، مؤسسة الرسالة .
- مخلوف، ماجدة .
- الحريم في العصر العثماني، ط١، القاهرة، دار الآفاق، ١٤١٨هـ/١٩٩٨.
- الخدمات والمرافق العامة في مكة المكرمة في العهد العثماني، مؤتمر مكة عاصمة الثقافة، ١٤٢٦هـ.
- مداح، أميرة بنت علي مداح.
- أوقاف النساء في مكة المكرمة في العصر العثماني ودور المرأة فيها، القاهرة، دار القاهرة، ٢٠١٠م.
- خيرات ماه بيكر كوسام والدة السلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين صورة للتضامن الاجتماعي، والديني خلال العصر العثماني، المؤرخ المصري، ع٢٤، يناير ٢٠٠١م.